أيّ دور للجهل بالآخر في رسم الصورة النمطية السائدة عنه؟

أ.د. مصطفى الحلوة

أستاذ الفلسفة في الجامعة اللبنانية

مجلة نقد وتنوير – مقاربات نقدية في التربية والمجتمع

– يناير – 2015

http://edusocio.net

أيّ دور للجهل بالآخر في رسم الصورة النمطية السائدة عنه؟

بقلم – أ.د. مصطفى الحلوة

ما قبل المدخل:

عمد الفيلسوف الألماني مارتن هيدغر، في أخريات أيامه، إلى تخيُّرِ عنوان/ شعار لمجموعة مؤلفاته، مُطلقاً عليها هذه التسمية: " طُرُقٌ، لا مؤلفات!".

لقد أراد، عبر هذا العنوان الطذريف، التدليل على أن تجليات فكره– وأيّ فكر– لا يمكن اختزالها إلى عدد من الأطروحات، كون الفكر مُشَرّع الأبواب على آفاقٍ بلا ضفاف، وهو في تحولاته وفي حركته التساؤلية مستمرٌ، كما أمواج البحر التي لا يهدأ لها مدٌ ولا جزر!

استيحاءً من هذا العنوان/ الشعار، الذي يستبطن معاني غائرةً في بُعدها الفلسفي، فإننا، مع بعد الشقّة بيننا وبين ذلك الفيلسوف، ننهد من خلال هذه المقاربة إلى أن نسلك طريقاً نترصّدُ فيها صورة الآخر المختلف التي تصوغُها عقولٌ أعماها الجهل ورانَ عليها التخلف وسائر "القيم الهابطة"، إلى نفوسٍ يسكنها مرضٌ عُضال؛ فإذا بهذه الصورة حبيسةُ قوالبَ من "الإسمنت المسلّح" ، تعصى على الاختراق، وإذا بعقل السَجّان وبجُدُرِ السجنِ من مادةٍ بل من طبيعةٍ واحدة!

مدخـــل:

إن الإشكالية التي نُقارب "أيَّ دور للجهل بالآخر في رسم الصورة النمطية السائدة عنه؟"، وهي المندرجة تحت العنوان المركزي لهذا المؤتمر "هل يعرف المسيحيون والمسلمون في العالم العربي بعضهم بعضاً؟ وكيف يمكننا إعادة تكوين المستقبل؟"، تضعنا بالضرورة في مواجهة جُملةٍ من الأسئلة التي تنبني عليها مقاربتنا.

على أنه قبل التوقف عند هذه الأسئلة وإيرادها بشكل منهجي مُتسلسل،ينبغي ألاّ يسهى عن البال، أنَّ قبالةَ كل آخر مختلف ثمة توأمَه، بل الآخر النقيض؟ ولا يهمّ إذا كان هذا الآخر فرداً أو شعباً أو أمةً أو أيّ إطارٍ جامع. وهكذا يغدو على الساحة لاعبان، لكل منهما نصيبُه من اللعب ومن الإمساك بخيوط اللعبة!

وفي سرد لهذه الأسئلة، التي يستبطن بعضها إجابة عن المراد منها، نستهل: على أي آخر نتكلم؟ هل على آخر مختلف قابع في نطاق مكاني مغاير لمكاننا، ومُتعيِّن في زمنٍ مضى أم في الزمن الراهن؟ أم نتحدّث عن آخر مختلف يعيش بين ظهرانينا، ونتواجه وإياه على مدار الأيام والساعات، مُتغايرين، معتقداتٍ ورؤىً وأنماطاً سلوكية وتطلعاتٍ وانتظارات؟ بل، نذهب أبعد، فنتساءل: هل يكون الآخر مُتجسداً فينا، ولنغدُوَ في صراعٍ مُرٍّ لا هوادة فيه بين "الأنا" و"الذات"؟ وبمعنى أكثر وضوحاً يغدو أحدنا في حالةٍ من التمزق بين تشكيله ، مُتعدِّد الجوانب، وبين منظومات قيمية، أأصلية كانت أم مكتسبة؟

وعن تعاطي الآخر المختلف، ثمة سؤال عن طبيعة الجهل به: هل أن الجهل عاملٌ وحيدٌ أحدٌ في نكرانِهِ وفي تنميطه وقولبته، وفق رؤيتنا؟

وهل هذا الجهل ناجمٌ عن جهلٍ حقيقي "صادق" أم عن تجاهل متعمَّد، يُخفي معرفةً حقيقيةً بالآخر، وينجلي تالياً عن موقفٍ مُغرق في دوغمائيتِه؟! وما هي محمولات الصورة المنمطة التي يُلبِّسُها الآخر المختلف، في الاتجاهين: طرداً وعكساً؟

إن هذه الأسئلة، تكتسب اليوم أهمية مُضاعفة، في ظل "التسونامي" الداعشي، الذي يجتاح المنطقة العربية من أقصاها إلى أقصاها، ويتهدد وجودياً، ليس مصير الأقليات وحدها، بل كل المجموعات الأكثرية والأقلوية التي تنهج سبيل الاعتدال وتدعو إلى كلمةٍ سواء!

وإذا قُدِّر لهذه الأسئلة أن تخرج من الإطار النظري بل التنظيري البحت إلى حالاتٍ معيوشة، فإن سؤالاً مركزياً يتصدّر واجهة المقاربة، في شقها العملاني، وهو الآتي: كيف ينظر المسلم إلى المسيحي كما المسيحي إلى المسلم في لبنان وفي سائر الأقطار العربية؟ بل كيف ينظر المسلم من مذهب معينٍ إلى مسلمٍ آخر لا يُشاركهُ مذهبه؟

تأسيساً على ما تقدّم، لا بدّ لأطروحتنا أن تنطلق بداءةً من مقاربة "سؤال الهوية والحق بالاختلاف"، ذلك أن القائم بعملية التنميط والقولبة– إذا جاز التعبير– ينطلق من هوية ما، بل يصدر عن معتقدات ورؤى، يشفُّ عنها سؤال الهوية.

في سؤال الهوية والحق بالاختلاف:

تتشكّل الهوية في أدغال الذات، مُتجسّدةً عبر انتماءات ومكوّنات ذات مروحةٍ واسعة، فهي قد تطاول الجنس والعرق واللغة والطبقة الاجتماعية، إلى الموروثات الثقافية والذاكرة التاريخية...

وفي توصيف أكثر دقةً، فإن الهوية لا تقتصر على عنصر واحد. فهي ليست الأصل العرقي أو الإثني، وفق تنظير بعض العنصريين والأنتروبولوجيين من بقايا استعماريّي القرن التاسع عشر. وهي ليست اللغة وحسب، كما يفترض القوميون المثاليون الكلاسيكيون، وهي ليست كذلك الانتماء إلى المعتقد الديني، وفق ما يُبشِر به بعض رجال الدين، أيّ دين. علماً أن هذا المكوِّن الأخير يحتل موقع الصدارة في زمننا الراهن.

وفي تعريف صادقٍ للهوية، ذهب بعضهم إلى أن الهوية هي ما يصمد من الإنسان عبر الزمن، فتلازمه طابعةً شخصيته ببصماتها، ومحددةً معالمه بشكل ثابت، وهي تُعد شرطاً لازباً في كينونة الفرد.

إشارةٌ إلى أن ملامح الهوية لا تتضح من دون لقاء مع الآخر، ذلك أن العُزلة عنه، تجعلها ذات بُعدٍ واحد، ما يُسرِّع إليها العطب والجمود، في حين أن اللقاء مع الآخر المختلف ، يمنحها أبعاداً مركبة، فتنفتح على أكثر من عالم.

ولا جرمَ أن الهوية لا تتشكَّل مرةً واحدة، ولا تبقى على ما هي عليه أبد الدهر، كونها ظاهرة ثقافية واجتماعية وتاريخية؛ بمعنى أن لديها قابلية التغيُّر والتحوّل، بما يمنحها بُعداً صيرورياً.

وإذْ يغدو التحوّل سمةً دائمةً في لون الهوية الأبرز والأكثر غلبةً، فهو يأتي انعكاساً مباشراً وطبيعياً لنوع أو مضمون المخاطر والتحديات التي تواجه الفرد والجماعة، في زمان ما وفي مكان ما.

وهكذا، بات مرفوضاً اليوم القول بهوية مُقدّسة، تُشبه المعتقدات الدينية، بل إن الهوية هي، في آن معاً، هوية أرضية، واقعية، وليست سماوية ولا مقدسّة. وهي ، استطراداً، مُتغيِّرة، مُتعدّدة العناصر، مركبَّة ومتحوِّلة .

ثمة مثالٌ صارخٌ و"طازج"– إذا جاز التعبير– يرقى إلى أيام معدودات، فقد دعا الزعيم السياسي الأبرز للدروز الأستاذ وليد جنبلاط ، خلال جولةٍ تفقدية له في منطقتي حاصبيا والعرقوب، أتباع طائفته إلى أن يعيشوا في وفاقٍ مع مجاوريهم من مختلف الطوائف، بيد أن الأمر اللافت حثُّهُ الموحدين الدروز للعودة إلى أصالتهم الإسلامية، وذلك ببناء المساجد وإقامة الصلوات فيها، انسجاماً مع إيمانهم الديني! على أن ما لم يقله جنبلاط جهاراً، يستبطن موقفاً دفاعياً وقائياً تُجاه الخطر الداعشي الزاحف على المنطقة من كل فج عميق.

يتحصل لنا من خلال هذه الدعوة جنوحٌ إلى "تكييف" الهوية، وفق مقتضيات الأوضاع الاستثنائية الداهمة، وبما يجعل الهوية، أية هوية، قابلة لتعديل خطابها! وفي رصد لمخاطر الهوية، فإن مشكلتها تزداد تعقيداً إذا انطوت الجماعة، أية جماعة، على عدة هويّات في آن،وإذا انطوت أيضاً على هويات مستيقظة وهويات نائمة، قابلة للتيقظ في شروط محدّدة.

من هُنا ، فإن الوعي الزائد بالهوية خطيرٌ جداً، وقد يغدو دافعاً إلى توسُّل العنف، وصولاً إلى القتل، ولا عجب في ذلك، فالوعي المبالغ فيه بالهوية ذو نزوع شوفيني، ونافٍ لغيره من الهويات، ناهيك عن أن الانتقال بالهوية إلى حالة إيديولوجية هو مظهر من مظاهر الانحطاط الحضاري والسياسي والإنساني.

ولا ريب أن الإحساس بالهوية والتشبث بها، يقوى في لحظات التأزم والفترات الانتقالية من تاريخ الأمم والشعوب. وعلى سبيل المثال، فإنه غداة سايكس– بيكو، كان للبنانيي الساحل أن يرفضوا الانضمام إلى الكيان اللبناني المستحدث في العام 1920.

ولقد شكّلت مدينة طرابلس حالة نموذجية، وخاضت حراكاً اتّسم بالعنف ضد الفرنسيين، ما جعلهم يُطلقون عليها "مدينة عاصية!" . فهذه المدينة تشبثت بهويتها السورية (طرابلس الشام)، رافضةً الانضمام إلى ذلك الكيان.

وإذْ تقف المنطقة العربية اليوم على أبواب سايكس– بيكو جديد، وعنوانُهُ الذهاب إلى إعادة النظر بخارطتها، وبما يؤول إلى انبثاق كيانات بل كانتونات طائفية/ مذهبية وعرقية وأتنية، فإن صراع الهويات القاتلة، لا بد أن يُطلَّ برأسِهِ ولتروح المنطقة برمتها في سُعارٍ ما بعده سُعار!

وفي مجال تفكيك الهوية، نُضيف بأنه حين يطغى إحساس "الأنا" بظلم الآخر وهيمنتهِ، تبادر إلى الدفاع عن نفسها، خشية الذوبان، فتقوِّي انتماءها إلى الجماعة، بل إنها تبحث عن الهوية التي تتميَّز بها عن الآخر المختلف، وتجمعها بمن تأتلف معها، كي يزداد إحساسُها بكينونتها .

وفي تفصيل للمسالة أكثر، فإن الناس حينما يشعرون بأنهم مهددون في إيمانهم، يبرز الانتماء الديني، كمختصر جامع مانع لهويتهم الكاملة، وحيث يطال التهديد لغتهم الأم أو جماعتهم الاتنية (حالة الكرد راهناً، ولا سيما في سوريا والعراق) لا يترددون في خوض مواجهة ضارية مع أبناء دينهم (الحرب في كوباني أو عين العرب– سوريا، هي حرب بين الدولة الإسلامية، وأتباعها من المسلمين السنّة، وبين الأكراد وهم من الطائفة السُنية أيضاً!).

في أعطاب الهوية وأوهامها والتجليات!

إن الهوية، كونها صيرورية، فهي لا يمكن أن تستكين في وضع منعزل وتتأبّد. فهي، كما أسلفنا، لا تأخذ بعدها الحقيقي إلا عبر علاقتها أو اشتباكها مع الآخر المختلف، ذلك أن النقيض لا يُستبانُ إلا بالنقيض!

وإذْ يغدو الاختلاف، من منظور الدين، رحمة؛ وهو دليل عافية، في قاموس الديمقراطية، فإنه يُؤسِّس لثقافة ينفتح فيها الإنسان على أخيه الإنسان ويحترم كل منهما ما يُميِّز الآخر.

بيد أن الاختلاف غالباً ما يتحوّل إلى نقمة! وهذا ما أثبتهُ التاريخ، عبر حقبهِ المتعاقبة، وما يُجدِّد التأكيد عليه اليوم، بأجلى صوره وأشدها مضاضةً وفجاجة!

ولا ريب أن هذه النقمة تتبدّى من خلال إهانة الآخر المختلف وإقصائه، كي تؤكد الذات استعلاءها، فتتمظهر في هيئة من يمتلك الحقيقة المطلقة.

وهكذا، والحال هذه، يُقرأ الآخر قراءة مغلقةً على قولٍ واحد، وتُرسم صورة مشوَّهة له، ما يفضي إلى إشاعة ثقافة الكراهية.

وساعتها يتيهُ العقل ويضلّ السبيل، وتتفلَّت الغرائز من عقالها، فتكون النتيجة تدمير الآخر، ما يعني تدمير الذات، إذْ لا ذات من دون الآخر!

وهكذا تُشوَّهُ "الأنا"، التي غدت أنا متضخمة، محكومة بعقدة التفوّق، فتقوم على تعظيم الذات، وترذل كل من يختلف معها وتحتقره.

ولا شك أن هذه الحالة هي حالة تُضاد مفهوم الثقافة الذي يقوم على التطور وتقبُّل كل معرفة جديدة.

إنّ المثقف الحقيقي، يتجاوز الرؤية المغلقة، ويبتعد عن التعامل مع مكونات هويته القومية، بصفتها جوهراً ماورائياً أو عنصراً نقياً أو بنية ثابتة أو حقيقة مُتعالية أو شعاراً مقدّساً.

وإلى ذلك، فهو لا يمكن أن يرى في هويته تقوقعاً على الذات، ولا أن يرفض الانفتاح على الآخر من أجل الحفاظ على مكوِّناتها، لأن ذلك يعني الجمود والضعف والانحطاط!

وليكنْ معلوماً أنَّ العبرة ليست في الاختلاف، فالاختلاف مُعطى قبل أن ينزاح إلى مصاف المشكلة، وهو يغدو مشكلةً بحسب ما نُديره!

وفي توقُّفٍ عند واحدٍ من أهم أعطاب الهوية، أن ماهياتنا قد تجنح إلى إنتاج نوعين من الأوهام: وهم الأصولية ووهم العبث!

فالوهم الأول يؤدّي إلى إلغاء التاريخ بأكمله، كونه يهدف إلى إعادة إنتاج الماضي في الحاضر. أما عن الوهم الثاني، فهو يتجاهل الماضي والحاضر في آن، وليفرَّ إلى المستقبل، وهنا يظهر الفكر الطوباوي!

وفي كلا الحالين، فإن ثمة شكلاً من أشكال تجميد الهوية في صورة من صور الماهية، في حين أن الهوية التي يجب على المرء رعايتها، هي التي تنطلقُ بحريته وإرادته. وفي هذا الإطار ثمة تقاطع مع الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر الذي يذهب إلى "أن هويتي هي حُريتي"!

ولا ريب أنّ الأمة التي تتهرب من الحاضر تحوِّل التاريخ إلى نوع من المتحف، أو إلى معرض لبضائع جاهزة، وما على المرء حينها إلا تخيُّر البضاعة التي يُريد. وهكذا تتحول الهوية إلى ماهية مُتحجِّرة!

يتحصل في ما يتحصل من كتاب المفكر اللبناني– العالمي أمين معلوف "الهويات القاتلة"، أنّ الهويات النازية والفاشية والستالينية هي النماذج الفاقعة للهويات القاتلة في التُراث الغربي– يُضاف إليها الهوية الصهيونية المترعة عُنصرية– ناهيك عن أن ثمة هوية "سوبر" قاتلة راهناً، تسيد وتميد في طول بلاد العرب وعرضها، هي "الهوية الداعشية"، مُهدِّدة بالإجهاز على العديد من الهويات، وناشرة ألوية الرُعب والتدمير ذي الطابع "الهولاكي"(نسبةً إلى هولاكو)!

ولقد خلص العميد محمد شيّا، وهو يفكِّك كتاب "الهويات القاتلة"، إلى أنه عندما تسود المجتمع حالة من انعدام الثقة، فإن أشكال التضامن التي يجري التمسك بها هي الأكثر انغلاقيةً. عندها، تتعطل جميع الحريات السياسية أو النقابية أو الأكاديمية، ولتغدو المعابد الأماكن الوحيدة التي يمكن الاجتماع فيها والتداول والشعور بالاتحاد في مواجهة المحنة .

تحت ظلال الهويات القاتلة و"زميلاتها"، ومن جوفها ومدارسها يحضرُ المنمِّط والمقولِب، فتغدو الساحة ملكه وقبضَ يديه!

وفي ترسيم لصورته، فهو يغدو بمنزلة امرئ، ليس العقل إمامَهُ ولا هاديه، ولا مُشيراً في صُبحِهِ والمساء (التعبير مُستوحى من أبي العلاء المعري: كَذِبَ الظنُّ لا إمام سوى العقلِ مُشيراً في صبحه والمساء!

بل إن غرائزيته التي تنزّ حقداً دفيناً وكراهيةً لا حدود لهما، تُملي عليه رؤاه ومواقفه وسلوكياته تجاه الآخر المختلف.

إنه امرؤ موتورٌ، ضُرِبَ على قلبه بالأسداد، وهو أشبه ما يكون بمن صوّرهم القرآن الكريم خير تصوير: " صُمٌّ، بُكمٌ، عُميٌ، فهم لا يعقلون"! (البقرة 2/171).

إنه فردٌ أعماهُ الجهلُ واستبدَّ به التخلّف ورمى به في مجاهل الزمن الآفل، فغدا خارجَ العصر وخارج كل جديد!

إنه لا يخضعُ لقانون الصيرورة، فيلبث مُتشبِّثاً بتلابيب الماضي ومعتقلاً بين براثن الحاضر، ولا كوَّةَ مفتوحة لديه على النور والهواء وعلى الآتي!

وفي مقلب آخر– وحتى لا نضلّ السبيل– قد يكون الجهل لديه " عُدة شغلٍ"، يتوسَّلُهُ لشهْرِ عدوانيتِهِ ضد الآخر المختلف، تحقيقاً لاستراتيجية واستهدافات بعيدة المدى، لا يُقدَّر له تحقيقها إلا باللجوء إلى الجهل المتعمّد والممنهج والمدروس والمرتقبة عواقبه!

إنه أحد أمراء "مكيافللي" لا يُحلل ولا يُحرِّم، يستهدي بالشعار الأثير "الغاية تُبرّر الوسيلة"!

تأسيساً على هذا الشعار، وكمثال ذي راهنيةٍ وذي صُدقية عالية، فهُو ما يقوم به متفرداً "تنظيم الدولة الإسلامية" (داعش) من عمليات ذبح، ينشرها على مختلف وسائل التواصل!

وفي رأينا فإن اعتماد هذه الوسيلة ليس ناجماً عن دوافع إجرامية، بقدر ما هو صادرٌ عن نيّةٍ لتوظيف إعلامي راعب، يُرمى من ورائه إلى إلقاء الهلع والذعر الشديدين في قلوب الخصم، فيفرَّ من ميدان المعركة قبل أن تصل إليه جحافل الدواعش! إنهم يغزون المدن والمناطق ويحتلونها بسلاح الرعب أكثر مما يفعلون بالسلاح الكلاسيكي!

وفي كل الحالات ومُطلقِها، فإنّ المنمِّط والمقولِب هو مُفترٍ أثيم، إذْ يرى إلى الآخر المختلف خصماً وعدواً، يُلبسُهُ ثوباً ليس له، وينعته بصفاتٍ ليس عليها.يُقولبُهُ كيفما يشاء، كما الفاخوري الذي يضع إذن الجرَّة في أي موضع من رقبتها! وإذا لم يجد المنمط والمقولب آخر يُنمِّطُهُ ويعمل فيه تشويهاً، فهو يخترع آخر مختلفاً، ويروح إلى نهاية الشوط في تحويل الاختلاف إلى خلافٍ مستعصٍ على المعالجة، تحقيقاً لأهدافِهِ ومراميه!

تنميط الآخر المختلف وقولبته/ اختراع أوروبي- غربي!

في تقصٍّ لجنوح الخطاب الإسلاموي، في توجهه إلى الآخر المختلف، فإنه لا بد من التشديد على مسؤولية الغرب الأوروبي التي تبرز جليةً في هذا المضمار، ولا سيما إبّان القرون الأربعة الأخيرة.

لقد اعتنق الغرب، في ما اعتنق، نظرية المركزية الغربية، أو التمركز الأوروبي، هذه النظرية التي قامت على أقانيم ثلاثة: مركزية العِرق، ومركزية "الأنا" ومركزية العقل.

إشارةٌ إلى أن هذه المركزيات الثلاث، لا زالت قيِّمةً على تصرُّفاته وعلى مواقفه بإزاء الآخر المختلف، والآخر مجسّمٌ راهناً في المشرق العربي الإسلامي. على أن ثمة فكرة راسخة، تم استدخالُها إلى مكوّن الهوية الغربية، هي فكرة العدو! ويبدو أن الشرق هو أكبر الأعداء حضوراً في وعي الغرب، ماضياً وحاضراً!

ووفق الباحث إدوارد سعيد، فإن الفاتح الخارجي، لم يُقدِّم سوى بديلين للعرب والمسلمين، وهما "فلتخدِمْ أو فلتُدَمَّرْ!"

ولقد كان للاستشراق، وهو أحد أهم الأذرع الفكرية التي توسّلها الغرب، دورٌ بارز في تعزيز أطروحة التمركز الأوروبي، وفي تسفيه العقل العربي، وفي وصم العرب والمسلمين بالتخلّف والنزوع القبلي وتذرّر التفكير لديهم...

هذا ما حدا الباحث علي زيعور على أن يُسلّط الضوء قوياً على خلفيات العمل الاستشراقي واستهدافاته، والذي ما فتئ يُردِّد: "أن للشرقِ خصائص ثابتة. واستمر الغربيون في تلك النظرة الثابتة، جمَدوا فيها، وجمَّدوا الشرق فيها، كرروا بلا مللٍ بتغييرات طفيفة أو تنويعات في الثوب والتعبير.."، وليتوقف د. زيعور عند النرجسية التي تتحكم بالأجنبي، بحيث "ينطلق من أرضية الأمة الأقوى، ومن الثقافة المسيَّسة الغرضية، ومن العلائقية الدولية اللامتكافئة واللامُتحاورة، بل الخضوعية الإخضاعية، ومن الإنسان العربي المشيّأ عند الغربي أو المهمّش، أو المتاع والوسيلة.."

واستكمالاً لهذه البانوراما الاستشراقية الغربية، يذهب المستشرق الإنكليزي "جب"، إلى أن الفكر الإسلامي أو "العربسلامي" ذو خصائص تجزيء وتقطّع، وأن العقل هنا ذرّاني .

يتحصّل مما سبق، أن نظرة الغرب إلى العرب والمسلمين هي نظرة اختزالية، "فالأنا" العربية الإسلامية، وفق هذه النظرة، هي أنا مُستبدّة.

ولقد ذهبت بعض الدراسات الاستشراقية إلى أن أعطاباً ثلاثة تشوب الذات العربية: أولها ، الهوية التي تختلط فيها القبيلة بالدين والعرق والموقع الجغرافي؛ وثانيها، ثقافة الممانعة لمختلف أنواع العقلانية، أو بصورة أوضح للمنطق الغربي الكوني؛ وآخرها، النظام السياسي القائم على استلاب الحرية.

وفي دحض لهذا التجنّي الاستشراقي بخاصة، والغربي بعامة، يرى الباحث زيعور أن "هذه الإحالة للحضارة العربية الإسلامية إلى قطاع ضيق محصور تشيءٌ لها، وتقليصٌ واختزال. وكانت أغنى من أن تُغفل العقل والعلوم وحراثة الواقع، وخلق آداب مطلة على العالم والإنسان في الوجود وأمام المصير"، وليتبيَّن، عبر هذا الموقف افتئاتٌ وتميّز، ذلك أن "سجن تلك الحضارة الواسعة المديدة، بل والعميقة والمستمرة، في بنى وقوالب، في ثوابت مُسبقة وأبدية، سَجْنٌ للتطور والفكر الإنساني"، وليخلص إلى أنه من اللاعقلاني واللاتاريخي أن تُسقط على الذات كل الخصائص المنتجة، وعلى الآخر معايب ونقائص، وعكس ذلك صحيح" .

ونُضيف من جانبنا بأنه، ناهيك عن هذا الموقف الغربي المفتئت واللاعلمي واللاموضوعي، ثمة موقف استعلائي لا أخلاقي!

ولا ريب أن موقف الغرب مُثقلٌ بذاكرة الحروب الصليبية، إضافة إلى فتح العرب (أو غزوهم) بلاد الأندلس في القرن الثامن الميلادي، وإلى سائر الفتوحات الإسلامية التي كان لها أن تُسقط كيانات وإمبراطوريات، وفي عدادها الإمبراطورية البيزنطية في الشرق.

من هنا، فإن الذاكرة الجمعية الغربية ، سواءٌ على مستوى الوعي أو مستوى اللاوعي، ترتكز إلى تاريخ دام من المواجهات المستمرة والاحترابات بين الغرب والشرق. وكذا القول عن الذاكرة الجمعية العربية الإسلامية بإزاء المظالم التي مارسها الغرب الأوروبي على المسلمين والعرب، قديماً وحديثاً. وهكذا ، فإن الصراع مع الآخر المختلف، شرقاً وغرباً، هو نتاج سيرورة تضرب عمقاً في تاريخ دامٍ.

ولا ريب أن كل ما "يُقال" وما يُزيَّنُ حول مواقف تسامحية، مُتجسِّدةً في روايات وأقاصيص مُنتقاة من بطون الكتب، أو حتى في آياتٍ مُستلَّةٍ من الكتاب المقدّس ومن القرآن الكريم، وإن كانت تشكل جميعها نقاطاً مضيئةً في عتمة ذلك الصراع التاريخي، وقد تُخفِّف من غلوائه... كل أولئك لا يستطيع أن يُغيِّب الكراهية الدفينة التي اعتملت إبّان قرون، تهدأ إلى حينٍ من الدهر، ثم تُطل برأسها في حُقب التأزم!

وعلى رُغم الانتقائية التي يتم اللجوء إليها، بهدف تعزيز البُعد التسامحي لدى أتباع الأديان التوحيدية، فإن ثمة سؤالاً، من الصعب أن نضرب عنه صفحاً، وهو الآتي: أين نذهب بمفهوم "الشعب المختار" لدى الدين اليهودي، وبمقولة "خارج الكنيسة لا مجال للخلاص" عند المسيحيين، وبمقولة متوازية مضادة من لدن المسلمين، تتجسد عبر الآية القرآنية الكريمة:" ومن يتبع غير الإسلام ديناً، فلن يُقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين" (آل عمران : 3/85).

وهكذا ، حق لزميلنا د. يوسف معلوف أن يتساءل: ماذا لو أُخِذَت بحرفيتها هذه المقولات الثلاث وتمَّ التزامها؟

إن هذه المقولات تؤول، في عُرفه، إلى حصرية الحقيقة التي لا بد أن تُفضي بمعتنقيها إلى الدوغمائية والتزمت والأصولية والتعصب.

على أن ثمة سؤالاً، أكثر تحديداً، يطرحه د. معلوف: هل من الممكن الطلب إلى مسيحي ما أو مسلم ما أو يهودي ما التخلي عن مرجعهِ المعياري؟ .

وفي موقف يتقاطع مع موقف معلوف، يذهب زميلنا د. سهيل فرح بعيداً، فيرى أنه " بصرف النظر عن بعض المظاهر التي تدعو صادقة إلى التسامح والتفاعل والتحاور الديمقراطي، فإن معظم الجماعات ما زالت متقوقعة على نفسها، مُتسلحةً بـ"إسمنت الأرثوذكسيات" المتصلِّبة عن نفسها وعن الآخر".

ولا غرابة في ذلك، ففي وعي كل جماعة دوغما ثابتة عن نفسها وعن الآخر المختلف. وهذه الدوغما، كل منها تستبعد هذا الآخر، وغالباً ما كانت هذه الدوغما تنتقل من عُنف الكلمة إلى عُنف الفعل، والذي قد يصل إلى حد القتل! وهذا ما نشهدُ فصوله على أكثر من ساحةٍ عربية وإسلامية!

إنه صراعٌ، تستفيق خلاياه النائمة طوعاً، أو يتم "حركشتها"، بهدف إيقاظها، خدمةً لأهداف، ليست بعيدة عن عالم السياسة والحسابات الضيقة!

على أنه من الإنصاف القول، إن النظرة الغربية العدائية تُجاه الشرق، راحت تخف في العقود الخمسة الأخيرة، ذلك أن العولمة لعبت مؤخراً دوراً وازناً في هذا المجال. ولكن من أسفٍ فإن هذه النظرة أطلّت برأسها عقب أحداث 11 أيلول 2001، والتي كانت الولايات المتحدة الأميركية ساحتها، وليزداد سُعارها مع الصعود "الداعشي" في المنطقة، ولتعود النظرة العدائية المتبادلة سيرتها الأولى!

سعياً إلى الوجه النقيض للمسألة!

طالما هي "طرقٌ، لا مؤلفات"، على ما ذكرنا في مُستهل مداخلتنا، وفق التعبير الهيدغري، وقد أشرنا إلى أننا سالكون سُبُلاً، نتلمس عبر معالمها الصورة المنمطة، بل المشوهة للآخر المختلف، فإننا نسعى إلى القبض على الوجه النقيض للمسألة، مُتطارحين جملةً من الرؤى والتطلعات التي قُدِّر لنا الخلوص إليها عبر مواقع مُتعددة، تُطل منها نخبٌ دينية مُتنوِّرة، تنهد إلى كلمة سواء، إلى مُشتغلين بالفكر، ولا سيما الفلسفي منه.

ولعلنا عبر الإطار الأول، نتوقف ملياً عند خلوةٍ روحية، عُقدت بمبادرة من مؤسسة "أديان" ، مُنذ بضعة أشهر. وقد واجهت هذه الخلوة تحديات، وفق ما خلص إليه بيانها الختامي، أبرزها: انتشار العنف والتطرف الديني وتفشي الحروب والأعمال الإرهابية وقتل الأبرياء باسم الدين، ناهيك عن تنامي الخوف والحقد وخطاب التعصّب والكراهية على مواقع التواصل الاجتماعي، وحتى على بعض المنابر الدينية وعبر بعض البرامج التربوية.

وقد انتهت الخلوة إلى التوصية بعدة مقترحات، نوجزها في ما يلي:

أ- على رجال الدين أداء دورهم كمرجعيات روحية، لا كزعماء طوائف، فيشكلوا بذلك قوة للإصلاح والتوجيه في سبيل مجتمع مترابط، ب) إعادة التفكير في دور أهل الحوار تجاه المجتمع، وتحديد مسؤوليتهم وإمكانات التأثير الإيجابي التي يمتلكونها في الأوساط الشعبية، ج) رصد الخطاب الديني والعمل على نزع الأفكار والدعوات المتطرفة منه وازدواجية الخطاب ضمن الجماعة وخارجها، د) التواصل مع وسائل الإعلام لكي تعطي مساحة أكبر لكل ما يُساهم في صناعة رأي عام منفتح ومُستنير، هـ) زيادة المعرفة الدينية الصحيحة عن الأديان من أجل إخراج العلاقات بين الأفراد والجماعات من دائرة الخوف والتهديد والتكفير، و) تطوير التربية، خصوصاً في مجال المواطنة وقيم العيش معاً، ضمن المدارس والجامعات، ز) نشر ثقافة التنوع وقبول الاختلاف، ، ح) المحافظة على التفكير الإيجابي والرجاء، رغم الصعوبات، وعدم الاستسلام لليأس، بل الرجوع إلى الله وتعزيز الحياة الروحية والصلاة.

ولقد كان لهذه المؤسسة الناشطة أن تنقل بعضاً من هذه التوصيات من الحيِّز التنظيري إلى الحيّز العملاني، فأطلقت بالأمس "الدليل التدريبي الإسلامي- المسيحي" لتعزيز قيم المواطنة والعيش معاً.

وفي حديث مع صحيفة النهار ، أكّد رئيس المؤسسة د. فادي ضو أن "هذا الدليل يُشكل استثناءً في الظروف التي يمر بها لبنان والمنطقة. هو عمل نموذجي من التعاون بالعمل المشترك بين المؤسسات الدينية" ، ويُتابع قائلاً: " تكمن أهميته في أنه يُبرز دور المؤسسات الدينية والخطاب الديني في موضوع المواطنة، لتعزيزها وتعزيز قيمها.. إن أستاذ التعليم الديني سيحكي خطاباً وطنياً لتلامذته".

إشارةٌ إلى أنّ هذا الدليل موجّه إلى التلامذة الذين تتراوح أعمارهم بين سبع سنوات وثماني عشرة سنة ، وهو سيُدرَّس إلى جانب البرنامج المقرر ضمن حصة التعليم الديني. وفي شرحٍ لأبعاد هذه الخطوة العملانية، يتطلع المشاركون في وضع الدليل إلى تحرير الأديان من صورة التطرف التي أُلصقت بها، بسبب الذين ينتهجون العصبية وإقصاء الآخر، ويمارسون العنف باسم الدين. ناهيك عن أن هذه المقاربة تُساهم في إبراز ما يحتويه التراث الديني من موارد تدعم ثقافة التنوع، وقبول الآخر على اختلافه.

في توسعة للمسألة، مُنتقلين بها إلى فِناءات الفلسفة- ونحن من المشتغلين في أم العلوم- كان لنا في الاتحاد الفلسفي العربي وفي قسم الفلسفة كلية الآداب- الفرع الثالث، أن نعقد مؤتمراً فلسفياً ، لبنانياً عربياً بعنوان "الحق بالاختلاف وسؤال الهوية" . وقد خلصنا في هذا المؤتمر إلى جُملةٍ من الرؤى، تُصيب

مقتلاً من الأطروحة التي نعالج، وعبر أبوابٍ واسعة، ذلك أن إشكالية الجهل بالآخر المختلف وتنميطه هي نتاج إشكالية أكثر اتساعاً، ولا يمكن معالجتها بمعزلٍ عن حواضنها المتعددة والخلفيات المؤسسة لها. ولقد كان لهذا المؤتمر أن يخلص إلى الرؤى الآتية:

الانتصار للهوية العربية المنفتحة، غير المنكفئة على نفسها وغير الشوفينية، سواءٌ هوية الأكثرية أو الأقلويات، والتحذير من أدلجة الهوية، كون ذلك يُشكل مدخلاً إلى الانحطاط الفكري والسياسي والإنساني.

إن غياب الجوهر الحقيقي للدولة المعاصرة، في مجتمعنا العربي، والمرتكزة على المواطنة وقيم المساواة والعدالة والديمقراطية، كان دافعاً إلى الإنكفاء في إطار هويات متعصّبة، نافية للغير. وعليه، فإن المطلوب إطِّراح العصبية المتعصبة للهوية، وفي المقابل الانحياز إلى عصبية المجتمع، بالمعنى الخلدوني، أي العصبية التي تجمع الناس ولا تذرِّرهم.

المطلوب من الثقافة العربية المعاصرة أن تبحث عن هوية، هي هوية الإنسان، بوصفِهِ إنساناً، لا بوصفِهِ منتمياً إلى شعب أو أمة أو دين أو معتقد، وصولاً إلى حالة من حالات الارتباط بالإنسانية.

إن الاعتراف بالاختلاف، لا يغني عن عملية إدارته. فالاختلاف حق، وهو مُعطى قبل أن يُصبح إشكالية أو مشكلة. علماً أن تعايش الاختلاف يتحقق في مجتمعنا العربي، بممارسة المواطنة الحقة.

ويحلو لنا في ختام هذه المداخلة أن نتوقف عند مقالة للطبيب اللبناني العالمي فيليب سالم، في افتتاحية له في صحيفة النهار (9 تشرين أول 2014)، يتصدى فيها للأوضاع الخطرة التي تعيشها المنطقة العربية راهناً، مستلين منها بضع كلمات: ".. نحن في حاجة إلى بناء جبهات أخرى غير جبهات العسكر في هذه الحرب على الإرهاب. ومن أهم هذه الجبهات، جبهة التعليم والتربية.. وحدها التربية تحرر العقل، وحدها تصنع عقلاً جديداً وتالياً إنساناً جديداً .. أن الشعوب التي تصر على مزج الدين بالدولة، تصرّ بالفعل على صنع قنبلة نووية ضد نفسها، قنبلة تقتلها هي ولا تقتل أعداءها".

وإذْ أختم هذه المداخلة، على وقع الأحداث الدامية التي تجتاح منطقتنا وتتهدّد بلدنا، وما تُخلِّف من مآسٍ وكوارث، وقودُها الإنسان وما أبدعت يداه، ينتابني وجعٌ حتى العظم، ولا أجد عبارةً أكثر تجسيداً لحالتي – وحالتنا– من قول السيد المسيح(عليه السلام): "نفسي حزينةٌ حتى الموت!".